

رسالة إلى المعلمين و المربين وأولياء الأمور

كيف نتفاعل مع تلاميذنا في هذه الظروف الصعبة؟

بالنيابة عن مركز القطان للبحث والتطوير التربوي فإنني أود التعبير عن عزاء المركز وباحثيه الحار لكل من فقد حبيباً أو غالباً أثناء الاجتياح الإسرائيلي الأخير للضفة الغربية. وبالرغم من الحواجز العسكرية التي أقامتها قوات الاحتلال أو المعوقات والعقبات التي تضعها بشكل متواصل عبر ممارسات عديدة، إلا أن مركز القطان لا يزال مصمماً على تكريس جهوده للمساهمة في تطوير التربية والتعليم في فلسطين. وفي هذا السياق فقد قمت خلال الأسبوعين الأخيرين بتكريس الكثير من وقتي في حضور حصص صفية في العديد من المدارس الحكومية في إطار دراسة أقوم حالياً بإنجازها، تتعلق بكيفية العمل الاتصالي والتفاعلي في مجال اللغة الإنجليزية، وهذه الدراسة هي واحدة من عدد من الدراسات التي يقوم بها باحثو المركز، حيث إن المركز مستمر في القيام بعمله التربوي مع الأخذ بعين الاعتبار التطورات التي حدثت، وما زالت تحدث في المجتمع الفلسطيني.

أيضاً، وبالتالي فإن لهذا النوع من العنف والغضب الذي يسببه أثنين مدمرين على الطلبة؛ فسيعاني الطلبة من المزاجية وعدم الارتياح ما سيؤثر على دراستهم، وربما الأخطر من ذلك سيتمثل في ردة فعل الأطفال التي ستتجسد عن طريق ممارسة العدوانية وعزل الذات عن الغير، الأمر الذي قد يضر بالعلاقة ما بين الطلبة وزملائهم ومعلميهم وأفراد أسرهم. ومن المفيد الإشارة إلى أن دورنا كمربين يمتد أيضاً ليشمل النواحي الثقافية والروحية المتعلقة بنمو الأطفال، غير أن الوضع الحالي يشير إلى ضرورة ماسة من أجل بث مزيد من الوعي الروحي وتلبية المزيد من الاحتياجات النفسية للأطفال.

إننا ننطلق في تصورنا هذا من اقتناعنا بأن التعليم لا يقوم، في جوهره، على استكمال المقررات المدرسية كهدف نهائي لعملية التعليم بل يتجاوز ذلك إلى تحقيق الأهداف العميقة وبعيدة المدى والخفية أيضاً التي يتطلع منهاج التربوي إلى تحقيقها، ولذلك فإن ربطاً

إن أول ما لفت انتباهي لحظة دخولي المدارس، هو التخريب المادي الذي أصاب المدارس من قبل جنود الاحتلال، ومع أن هذا الدمار المادي الممنهج كان هائلاً إلا أن دماراً أكبر أصاب نفسية الأطفال الفلسطينيين وعقولهم؛ فقد لاحظت بأن الأطفال أصبحوا أقل تركيزاً وأكثر عدوانية وأضحوا يخافون من الأصوات العالية، ويبدون حساسية زائدة لأي نوع من النقد يصدر عن معلمهم.

إن آثار الخوف، والغضب، والكبت واليأس التي يعانيتها أطفال فلسطين سوف تظهر على ممارساتهم وأفعالهم فيما بعد، ولذلك فإن دورنا باعتبارنا مربين ومعلمين يجب أن يتسع ويمتد ليشمل عوامل العلاج النفسي والإرشاد، ويجب علينا العمل على تنفيذ سلسلة من النشاطات الإبداعية التي يستطيع الطلبة بواسطتها التعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم بما فيها من غضب، وحزن وفرح، وبما تتضمنه أيضاً من معالجة للمشاعر العدوانية.

لقد تعرض الكثير من طلبتنا مباشرة للعنف، وقد شاهده معظمهم

أن لا نستسلم لحياة مليئة بالاضطهاد، وأن ننعنتها بأنها حياة الفلسطينيين، فالواقع المشترك للفلسطينيين ليس واقعاً عادياً أو طبيعياً، ولا هو بشيء يجب القبول به، فحينما نقف معاً ونفسح للأطفال مجالاً للتعبير عن معاناتهم فإن الطلبة يرفضون أن يكونوا ضحايا، ويعيدون السيطرة على حياتهم، قد لا يتمكن الطلبة من أن يسيطروا على ما يحدث لهم، ولكنهم يستطيعون -بمساعدتنا- أن يسيطروا على الطريقة التي يتجاوبون فيها مع الأحداث؛ فمن خلال هذا التجاوب نستطيع مراقبة مدى صحتهم النفسية وماهية مشاعرهم.

لقد لاحظت عبر الوقت الذي قضيته في مشاهدة الطلبة في حصصهم المدرسية أن المعلمات في كثير من الأحيان لم ينتهزن فرصاً عديدة كان يمكن استغلالها في فتح نقاشات في كثير من الموضوعات؛ فمثلاً، حدث أن عدداً من العمال دخلوا إلى أحد الصفوف ليفحصوا حجم التخريب الذي حصل في المدرسة، لقد كان هذا الحدث يمثل فرصة جيدة لسؤال الطلبة عن مدى الخراب الذي لحق ببيوتهم، وكان يمكن للطلبة أن يتبادلوا الحديث معاً عن الدمار الذي حصل وأن يشاركوا الآخرين مشاعرهم بخصوص الطريقة التي تم فيها إصلاح هذا الدمار، ولكن وللأسف، فإن هذه الفرصة لم تُستغل، وأن نوعاً من الحديث والنقاش لم يحدث.

إن وضع القضايا الحياتية المؤثرة على التلاميذ بصورة يومية ومستمرة ليقع في صلب العملية التربوية، ولذلك فإن قيام المعلمين بتوظيف الحوادث والحالات التي مر بها الأطفال من خلال تجاربهم الشخصية أو مشاهداتهم اليومية يضعهم في الحقيقة أمام دورهم الحقيقي كمعلمين يستلهمون ما يجري، ويؤطرونه في سياقٍ تعليمي يحقق الغاية التعليمية التي يتطلبها المنهاج في نمو التلميذ وتطوير مهاراته ومعارفه في إطار من المعرفة التي تتشكل في إطارها الواقعي - الحقيقي، وفي هذه الحالة فإنها ستولي اهتماماً جلياً بالبعد المعرفي/المهاراتي، وبالبعد النفسي/ الانفعالي، وهنا يمكن القول بأننا نتعامل مع تلاميذنا في إدراك واعٍ للشخصية الإنسانية بأبعادها المادية والنفسية.

وقد حدث أن سُئل الطلبة في صفٍ آخر عن مدى الدمار الذي لحق ببيوتهم، وفيما إذا كان هناك شهداء في العائلة؛ ردت طالبتان بالإيجاب، وللأسف أيضاً، فإن المعلمة سجلت اسمي الشهيدين

وثيقاً بين ما يجري في حجرة الصف وما يجري في المجتمع الذي يعيش فيه الأطفال يحقق تعليماً نافعاً ذا أهمية تربوية حقيقية، خاصة إذا ما وضع في اعتباره بصورة عميقة طبيعة المتعلم وظروفه ونفسيته وانفعالاته وما يؤثر في نموه الراهن والمستقبلي.

الصحة النفسية والتعبير عن الذات:

هناك العديد من الطرق التي نستطيع عن طريقها تشجيع الطلبة على التعبير عن مشاعرهم؛ بالنسبة للأطفال في الصفوف الدنيا، فإن الفن يمثل أسلوباً جيداً في إثارة الانفعالات والتعبير عنها، ومن هنا فإن الرسم مثلاً هو أداة جيدة للتعبير عن الذات، ولذلك فإن توفير الأوراق، والأقلام الملونة، والقليل من الوقت للطلبة سوف يُظهر نتائج رائعة، وسواء أكانت هذه الرسومات تعرض مشاهد من الواقع العنيف، أو مشاهد متخيلة لواقع سعيد يتسم بالسلام، فإننا يجب أن نشجع أعمال الطلبة بدلاً من نقدها، وعلياً أيضاً تشجيع طلبتنا على أن يعبروا شفهيّاً عما رسموه؛ حيث إن التعبير عن المشاعر يمثل عاملاً مهماً في رعاية الصحة النفسية للطفل. ومن الأنشطة الجيدة الأخرى التي يمكن تطبيقها مع الأطفال توزيع ورقة عمل تحتوي على عدد من الوجوه التي تعبر عن مشاعر مختلفة، والطلب من الطلبة أن يضعوا دائرة حول تلك الوجوه التي تعبر عن مزاجهم ومشاعرهم في ذلك اليوم، عندها تستطيع المعلمة أن تطلب من الطفل أن يشرح لزملائه عن مسببات شعوره هذا، وبالمقابل فإن المعلمة تستطيع أن تطلب من طلبتها أن يرسموا وجوهاً تعبر عن مشاعرهم في ذلك اليوم.

أما بالنسبة لطلبة الصفوف العليا، فإن النقاش هو وسيلة فعالة للتعبير عن الذات، فعلياً أن نشجع الطلبة على التعبير شفهيّاً وكلامياً عن مشاعرهم؛ مشاعر الخوف، والغضب، والكره ومشاعر فقدان، والهزيمة، والعدوانية واليأس أيضاً. إن تبادل التفاصيل المتعلقة بالمعاناة والتعبير عنها فيما بينهم يساهم في خلق نوع من الصلة الجماعية ويقلل من مشاعر الانعزال واليأس. ومن الجدير بالذكر أن السماح للطلبة بالبكاء، والصراخ والصمت هي من أكثر الوسائل تعبيراً.

ليس عاراً أو عيباً أن يبكي الطلبة في الصف، فالبكاء هو وسيلة صحية للتفريغ، ويجدر بنا إحاطة الشخص الباكي بالحنان والرأفة، وليس بالنقد والاستهتار بقدرته على السيطرة على مشاعره، ويجب

في المدارس، أم من خلال المؤسسات الفلسطينية في الخارج، أو عرضها أمام المتضامنين من الأجانب هنا، أو ممثلي الحكومات الأجنبية، فبعد أن يكتب الطلبة رسائل مثلاً تعبر عن مشاعرهم أثناء العيش تحت الاحتلال، فهم يستطيعون العمل معاً على إيجاد مواقع على الإنترنت لعناوين ممثلي الحكومات في الخارج، حيث يستطيع الطلبة أيضاً كتابة رسائل على شكل شهادات وإرسالها للنشر على مواقع مثل www.palestinemonitor.org،

www.electronicintifada.org www.miftah.org

أما داخل المدرسة، فمن الممكن إقامة معرض يتضمن الأعمال الفنية والرسائل التي قام الطلبة بإنجازها، كما يمكن تنظيم المعارض بعدة طرق، فمثلاً، يمكن تخصيص كل طابق من طوابق المدرسة لموضوع معين، كأن يكون الطابق الأول مخصصاً للأعمال الفنية والرسائل التي تتناول ما جرى في مدينة جنين، أما الطابق الثاني فقد يكون مخصصاً لقصصهم وتجاربهم الشخصية، ومن الممكن أن تتم دعوة أولياء الأمور وأفراد المجتمع لزيارة المعرض، ما يمنح الطلبة شعوراً بالفخر بإنجازهم، كما يمكن للطلبة العمل معاً من أجل كتابة نص مسرحي مستوحى من تجاربهم وإخراجه، وتقديمه كعرض مسرحي أمام الطلاب وأولياء الأمور.

إن التجربة الفلسطينية هي تجربة مشتركة، وهي تتطلب التعبير عنها بطريقة مشتركة أيضاً، إن ذلك يقتضي أن نعمل معاً من أجل إيجاد رسالة موحدة للمعاناة المشتركة، حيث يمثل ذلك انتصاراً روحياً بحد ذاته، هو في حقيقته شيء مميز للأطفال لا يستطيع أي نوع من العنف أن يقوم بتدميره.

وأخيراً أود أن أشير إلى أن هذه النصائح على أهميتها وفائدتها غير كافية، ومن المهم أن يتذكر المعلمون أن التعبير الجسدي قد يكون من أكثر الأمور أهمية؛ فهو الذي يمنح الأطفال شعوراً بالأمن، ولذلك فإن معانقة الأطفال وضمهم وتقيلهم وإشعارهم بالدفء يبدو سلوكاً ضرورياً وفعالاً.

وعلينا كمعلمين ومعلمين أن نعبر لطلبتنا عن مدى حبنا لهم. ولذلك فإن ابتساماتهم وابتساماتنا يجب أن تكون من أكثر الأمور إسعاداً لنا ولهم، وأن وجودهم يمثل هدية كبرى.

سكاي مكالغلن

باحثة/مركز القطان للبحث والتطوير التربوي

وواصلت إعطاء الدرس، لقد كان هذا الحدث فرصة لتناول الموضوع، ولكنها فرصة أهدرت، كان يمكن للطلبات استغلالها للتعبير عن عزائهن لعائلات الضحايا وتزويدهن ببعض النصائح المشجعة. كما كان من الممكن كذلك أن تعبر الطالبتان في هذه المناسبة عن حزنهما أمام هذا الجمهور من الطالبات اللواتي كن سيشعرن معهما، ويتفاعلا مع ما أصابهما، غير أن ذلك لم يحدث أيضاً.

وربما ستتساءلون عن الكيفية التي يمكن لنا من خلالها تشجيع الطلبة الصامتين على التكلم؛ فهناك العديد من الأسئلة التي يستطيع المعلم أن يسألها لإثارة نقاش بين الطلبة؛ يستطيع المعلم أن يسأل الطلبة عن مشاعرهم في ذلك اليوم، وعن ماهية العوامل التي سببت هذه المشاعر؛ فاستخدام عناوين الأخبار يمكن أن يكون طريقة فعالة لإثارة النقاش، وبخاصة أن معظم الطلبة لديهم آراء قوية حول الطريقة التي يغطي فيها الإعلام الأجنبي أوضاعهم، ويمكن مثلاً تقسيم الطلبة إلى مجموعات في محاولة لإيجاد طرق مبدعة لمساعدة الأشخاص الأقل حظاً والأسوأ حالاً منهم. كما أنه من المهم أن يعمل الطلبة على أخذ دورهم في عملية تنظيف المدينة، وأن يقوموا بأنشطة بعد الدوام المدرسي كأن يقوموا بتنظيف الشوارع وإصلاح الحدائق المدمرة، إن ذلك سيساهم في تنمية حبهم وانتمائهم لوطنهم، كما أنه سيسهل مخرجاً إيجابياً لطاقتهم ومشاعرهم.

التعبير عن الذات من خلال العمل الجماعي:

التعبير عن الذات يمثل الخطوة الأولى للتخفيف من المعاناة، وهناك العديد من الطرق العملية للقيام بذلك أيضاً؛ فالقيام بالمشاريع الجماعية المتعلقة بالوضع السياسي يمثل أداة جيدة لخلق الاستقرار في حياة الطلاب؛ مثلاً، يمكن تشجيع الطلبة على توثيق الدمار الذي حصل لمدارسهم عن طريق كاميرات الفيديو، فهذه التسجيلات يمكن إرسالها إلى مدارس وحكومات أجنبية في الخارج، كما يمكن للطلبة أيضاً أن يكتبوا رسائل، وقصصاً وقصائد عن تجاربهم الشخصية وإرسالها إلى ممثلي الحكومات الأجنبية هنا. إن هذه «الشهادة الذاتية» سوف تمنح الطلبة نوعاً من الشعور بالمنفعة، وبالسيطرة على حياتهم، وبوجود هدف يعملون من أجله.

يجب علينا أن لا نكتم أصوات أطفالنا، ويجب استغلال كل فرصة لإيجاد جمهور يسمع قصصهم، سواء أكان ذلك من خلال معارض